

مطولة
علي أحمد باكثير

محـــــاضرة

بقلم : الأستاذ حلمي محمد القاعود

مطبوعات نادي جازان الأدبي

ـ ١ ـ

يعتبر علي أحمد باكثير من أنضج الأدباء العرب المسلمين في القرن العشرين ، لأسباب كثيرة منها أنه يملك تصوراً اسلامياً ناضجاً ومستنيراً استطاع الوصول اليه بوعي واقتدار ومثابرة ، ومنها مقدرته الفنية أو موهبته الابداعية التى تجلت في أكثر من ميدان أدبي ، حيث ترك آثاراً على قدر كبير من السمو الفني ، خاصة في تلك الأجناس الأدبية التى لم تكن قد تأصلت بعد في تربة الأدب العربي المعاصر ، ومنها على سبيل المثال : المسرحية والقصة الطويلة ومن الأسباب التى أهّلته ليكون من أنضج أدبائنا المعاصرين ، أيضاً ، جرأته التى تبلغ الحدة في بعض المواقف ، حين يتناول القضايا المطروحة أمامه ، مهما كانت الظروف الخارجية غير ملائمة ، بل مهما كانت معادية ، شديدة العداء .

ومطولة « باكثير » الاسلامية ، والتى نظمها في سن باكرة (الخامسة والعشرين) تعبّر أصدق تعبير عن نضج « باكثير » وتوضح رؤيته المستنيرة للمستقبل من خلال الواقع . واذا كان الحظ لم يتح لهذه المطولة أن تنتشر ، حيث ظلت محصورة في نطاق ضيق لظروف مختلفة ، فان الواجب علينا أن نذيعها على الناس ، ليستشرفوا جانباً هاماً ومضيئا في حياة « علي أحمد باكثير » الشاعر ، والذى ارتسم في أذهانهم من قبل ، ككاتب مسرحي(١) أو قصاص أو مترجم أو كاتب مقالة أو صاحب مواقف مميزة في دنيا الأدب بعامة .

- ٢ -

من الواضح أن « المطولة » ترسمت خُطاً سابقة ، سار عليها شعراء المطولات في العصر الحديث والعصور التى قبله ، مثل البوصيري والبارودي وشوقي وغيرهم ، وان كنا نستطيع القول بصورة عامة أن معظم هذه المطولات قد خرج من تحت عباءة « البوصيري » أو من بردته بمعنى أدق ، وهي منتمية بدورها الى تائية « ابن الفارض » بصورة أو بأخرى .. لكن « البردة » وقد ذاعت بين الناس ، واشتهرت شهرة عظيمة في عصرنا الحديث ، فان « باكثير » قد بدا متأثراً بالأحرى بـ « نهج البردة » التى صاغها شوقي(٢) وغنتها أم كلثوم ، فصارت هينة وسلسة على الألسنة ، والأسماع بيد أن « باكثير » في كل الأحوال ، كان يحاول أن يكون مستقلا استقلالا ذاتياً وقد جاهد في ذلك جهاداً كبيراً ، ونجح الى حدّ ما ، رغم ظهور التأثر من حين الى آخر .

وكانت محاولة الاستقلال الذاتي واضحة بكثير في أكثر من مقطع من مقاطع القصيدة ، وهي تُنبيء بصورة أو بأخرى عن موهبة نامية ، آثر صاحبها أن يسوح داخل القصة التاريخية أو المسرحية ليحقق شوقاً متقداً ، يناديه دائماً لمعالجة قضايا الاسلام الراهنة من خلال التأريخ العريق ، وقد حقق شوقه باقتدار ، وسجل موقفاً مشرّفاً لالتزام الأديب المسلم تجاه واقعه ومستقبله وماضيه أيضاً .

ان « ميمية » « باكثير » تتميز في صورتها العامة بحس مرهف تجاه التأريخ والعقيدة ، كما أنها تدرك بجلاء تلك المؤامرات

الخبيثة التى أ ُضرمت في جنبات الواقع الاسلامي مستترة ، وظاهرة مما اضطر « باكثير » أنه ينسى « الشعر » أحياناً ، ويقف محاوراً في ندوة عقائدية ، وليس في قصيدة شعرية ، ولكنه كان يتذكر في معمعـة الحـوار أنه يؤدى دوراً آخـر ، فينسحب الى القصـيدة ، مستضيئاً بهدي ايمانه الى الاستمرار في الانشاد الحزين والثائِر .

- ٣ -

وذات يوم في عام (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م) ذهب « باكثير » الى الكعبة الزهراء ليُؤدى فريضة الحج وهناك أُخذت نفسه - كما يحدث للكثيرين - تخرج أثقالها ، وتلقى بها خارج الحرم الشريف، ثم تفيض في البث والشكوى ، وتتخلص تماماً من كل الشوائب والأكدار ، وتبتهج بالمستقبل القادم ، مهما كانت الشقة ، وكانت الشدّة ، وكان الضرام .. لقد رأى نجمة الأمل في الظلام والبرد والشك والارتياب ، ومن هنا كان مطلع « الميمية » منذ البداية يعلن استقلاله الذاتي فنياً عمن سبقوه :

يا نجمة الأمل المغشيّ بالألمِ
كوني دليلي في محلولك الظُلَمِ
في ليلة من ليالي القرّ حالكة
صخّابة بصدى الأرواح والدّيمِ
دجى تتالى كأمواج المحيط ، بها
عقلي وقلبي وطرفي ، كل ذاك عمى
أكاد أرتاب في نفسي فأنكرها
لولا مسيس جسمي غير متهم
في تعنّف هائل جمّ مزالقه
رهن الحياة به في زلة القدمِ(٣)

اننا أمام حالة خاصة شديدة الخصوصية ، تتحدث عن واقع مدلهم شديد الظلام والبرد ، يجعل العقل والقلب والطرف في عمى وحيرة وشك وتخبط ، وبذلك انخلع « باكثير » عن النمط الموروث في تلك المطولات والذى يبدأ بالنسيب ويعبّر عن ولعه « بالريم »

الذى أحلّ سفك الدمّ في الأشهر الحرم ، كما نرى عند شوقي ، أو الطلب من « زائد البرق » أن ييمم شطر دارة العلم ، ويحدو الغمام الى حيّ بذى سلم ، كما نجد عند البارودى ، أو مزج الدمع بالدم عند تذكر جيران بذى سلم ، كما نطالع لدى البوصيرى(٤) .

ان الحالة الخاصة هنا تقودنا الى عالم آخر يعيشه الشاعر بكل كيانه ، ويطرح من خلاله هموماً شخصية « تمتزج » بهموم عمومية يفصح عنها الشاعر فيما بعد ، ويسهب في ايضاحها ، ويلح عليها لدرجة أنها تنسيه « الشعر » أحياناً وتعرضه للمؤاخذة النقدية بوقوعه في النثرية ، والجنوح الى الجدل والمحاجّة كما سنرى .

بيد أن « باكثير » يوهمنا أنه على طريق من سبقوه وأنه وفيّ لمطالعهم ، حين يلوى عنقنا بنداء (نجمة الأمل) مرة ثانية لتُشرق وتُنير له السبيل لأنها « الحياة » ولأنها السبيل الى اتساع مضايق العيش :

فأشرقي وأنيرى لى السبيل فما
لى غير نورك من منجى ومعتصمِ
أنتِ الحياة ولولا أنتِ ما اتسعت
مضايق العيش بين الهم والسقمِ
تلوّحين لِمَنْ ضاقت مذاهبُه
وأوشك العيش يلقيه الى الرجمِ(٥)

ولكنه في البيت الأخير يمهد لنتخلى عن « الوهم » الذى صنعه بخطابه لها ، وبتأكيد هذا الخطاب بالضمير (أنت) مرتين في البيت الثاني ضمن الأبيات الثلاثة السابقة . لقد ظننا (نجمة الأمل) رمزاً للحبية التى يتغزّل بها الشعراء في مطلعهم الموروثة ، ولكنها الآن على وشك التحول الواضح الى « نجمة الأمل » الذى يرجوه

جميع الناس في حياتهم وآخرتهم ، الأمل الذى يمنح الكل ، الصبر وطول الانتظار حتى تتحقق مطالبهم وأهدافهم ، ولعل استيقاظ الشاعر على (رؤية الأماكن المقدسة) جعله يفيق عن معاقرة أشجانه وأحزانه وظلماته ، ليدرك رحابة الوجود من حوله ، وليحوّل « الأمل » الى واقع ملموس يتخطى الصعاب والعقبات والضيق والقهر النفسي :

فهذه نوبة في الحال زائلة
ودون بضع خطى ما رمته فَقُم
والوهم أمتن أسباب الحياة له
آثاره في سرور الناس والألم(٦)

ولكن النوبة تعاود الشاعر وتلحّ عليه ، فيأبى الا أن يذكرنا بما يجيش في داخله من همّ كالبركان ، وانه صاحب قضية خطيرة ، ورسالة عظيمة ، وهاهو ـ ولا غرو ـ جدير بحملها ، فالهموم ـ كما يقول ـ رسالات من الهمم :

يا ويح قلب بجنبي لا هدوء له
يجيش بالهم كالبركان بالحمم
يئن من ثِقَل الآمال تبهظه
ان الهموم رسالات من الهمم(٧)

وبذا تتحدد خصوصية المطلع لدى « باكثير » الذى يتجاوز الأنين والنواح والاستسلام اليائس « للريم » أو جيران ذي سلم ، الى التعبير الصافي عن أحاسيسه الصادقة وأحزانه الحقيقية بالمخاطبة المباشرة لـ « نجمة الأمل » لتنير له الطريق المظلم والقاتم والمقرور ، فهو يحمل رسالة هامة ويريد أن ينقلها الى الآخرين ، الذين هم بالضرورة صانعو أحزانه ، وأشجانه .

واذا انتقلنا الى الرسالة ، فسوف نجدها باختصار « شديد » تتحدث عن الآخرين ـ أو العرب بلفظ آخر ـ وهم اس ّ المشكلة وأساسها . ان حالتهم الراهنة منذ خمسين عاماً ، أقضت مضجعه ، وأر ّقته ، وجعلته يراهم في صحوه ويقظته ، ورحيله وسفره ، وصلاته وحجه ، وشعره ونثره .. انهم يلحون عليه بطريقة غير عادية فاذا نظر اليهم على مستوى الدنيا بأسرها ، فانه يجدهم قابعين داخل « الأحقاف » وطنه الأول والصغير(٨) ، نفس النوعية ، نفس المحنة ، نفس الألم . ولكنهم جميعاً على كل حال ، تحولوا الى رواية (بؤس) يعرضها الدهر ، ويتقاسمهم الغرب كالشياه والأنعام ، أما دينهم فقد أصبح فريسة للأعداء :

أرنو الى ـ يَعر ُب ـ والدهر يعرضها
رواية البؤس بعد العز ّ والنعم ِ
تقاسمتها شعوب الغرب تدفعها
الى المهالك سوق الشاء والنعم ِ
وأرمق البين والأعداء توسعه
فتكاً يضاف الى أدوائه القد ُم ِ(٩)

وكأنه حين يعود الى (الأحقاف) يريد أن يأخذ على طريقة الباحثين الاجتماعيين شريحة من المجتمع ، ويتبين من خلالها العلل والأسباب التى دفعت بيعرب الى أن تكون (رواية بؤس) انه تشبيه طريف وسافر ، وقاتل ـ وكالعادة يتصدر الجهل قائمة الأدواء ، تليه الفوضى والظلم والترف والفسق والتفرق ، والا ِحن :

وأ ُرجع الطرف الى (الأحقاف) غارقة
في الجهل ، فوضى بلا عدل ولا ن ُظ ُم ِ

تفنّنت في مــلاذ العيش ، تاركــة
ما تقتضيه ، فـلم تفطــر ولم تصمِ
والخلف محتكــم فيهــا ، يمزّقهـا
حتى يغـادرها لحمـاً عـلى وضمِ(١٠)

وهكذا يطرح الشاعر الهم السياسى الحضاري على الأشهاد بوضوح وحسم وأسى عميق ، ويصبح هذا الهم محور القضية التى احتشد لها بكل كيانه ووجدانه وأشواقه ، ويتمازج الواقع النفسي (داخله) مع الواقع السياسى والحضاري من (حوله) ، ويحدث أمامنا هـذا الضرام العنيف ، بين الشوق الى المثال أو (العلياء) وبين العجز والخمود السـاكن في قـرارة الواقع .. ان الشاعر يبدو واقفاً على الحافة ، ومضطرباً ومهتاجا وحانقا ومغيظا وأسوانا ، وحزيناً :

كيف القــرار عـلى حال يذوب لهـا
قلب الـكريم ويجـرى دمعــه بدمِ
ياليت شـعرى ؟ أللعليــاء من سبب
ألفيــه يقــذفني منهـا الى القممِ
شـوقي اليهـا وعجـزى عن تسلقهـا
يعذباني ، عـذاب الويـل والضرم(١١)

ان الدمع الذى يمتزج بالدم ، ليس من أجل (الريم) ولا من أجل (جيران ذى سلم) ولكن من أجل الخـروج من وهدة العجـز والخمود ، فليس هو الشاعر المتيّم أو الشاعر المترف الباحث عن متعة خاصة ، بل هو الذى يمضى قُدماً نحو غاية نبيلة ، ومثال أعظـم . بل انه يرى « الحب » في معنـاه الأرحب والأشمل الذى يتجـاوز المحبوب « المرأة » الى العـالم الأوسع والأكبر ، رغم انه عرف هذا الحب مع زوجه التى رحلت في شرخ الصبا والشباب ، فهو

قد عرف أن الحياة بلا حب ، خروج وشذوذ عن فطرة الله ونوع من العدمية والعبثية :

والحب يقصــر من خطوي ، وهــل عــرفت
(معبــودة الحب) مثــلي ، عابداً صنمي
أوفى وأقـــوم فى هجـــر وفى صــلة
مني بحفــظ عهــود الحــب والذمم
بليت منـــه بخطب لا عـــزاء لــه
الا اللقـــاء بــدار الخـــلد والسَلَم
ولـــن يـــزال وطيس الحب في كبـــدى
يرمى بـــذى شرر كالقصـــر مضطرم
وما الحيـــاة بـــلا حب ســوى جنــف
عن فطـــرة الله أو ضرب من العدم (١٢)

ان الحالة النفسية لمسيرة الشـاعر في القصيدة والتى ألحت عليـه منذ مطلعها ، وجعلته يصب نهر همومه في النهر الكبير ــ نهر الأمة ــ حولته الى رواية واع لتاريخنا الاسلامي المجيـد ، وقيامه بهـذا الدور ليس هروباً من حالته النفسية بقدر ما هو استفزاز للمشاعر الخامدة والأحاسيس النائمة ، لكي تفيق على شيء آخر ، أو على شيء نسيتَه ولم تعـد تذكره الا نادراً وربما لا تذكره أبداً وقبل أن يستفز مشاعر الأمة وأحاسيسها ، فانه يبدأ بنفسه لائماً ومعنِّفاً على ما مضى من عمر (خمس وعشرين سنة) لم يحقق من خلاله شيئاً . اذاً ماذا ينتظر ؟ هل مجرد الشيخوخة وحلول الشيب ؟ ان الشيب يحد من الطموح ، ويقلل من الحركة ، بل انه مجبنة ، لكن الشباب هو « براق المجد » والتشبيه هنا قوي وعميق يمتد الى براق النبي صلى الله عليه وسلم . حيث أُسري به الى المسجد الأقصى وعرج الى السموات العلا ، ولا بد للشـاعر ولنـا أيضـاً ــ من ركوب هـذا البراق ــ رمز الانطلاق وترك التردد والنكوص :

ويح الشـــباب ، وقـــد ندت أوائلـــه

والحـــــوض دوني واني لا أزال ظَمِـي

(خمس وعشرون) لم أدرك بهـا غرضـاً

مـــرت عليّ ـ مـــرور الطيف في الحلم

يا ويلتــــاه .. أأبغى أن أســـود اذا

ولّى الشـــباب وما فيـــه من العرم

هيهـات ، هيهـات ان الشيب مجبنـــة

تصـد عمـا يريـــد المجـــد من قحم

ان الشـــباب براق المجـــد يركبـــه

اليـــه كل فـــتى شـــيحان معتزم

فمـــا وقـــوفك مشـــدوهاً تردد مـــا

بين النـــكوص على الأعقـــاب والقدم

وقـــد بـــدا لك نـــور الله متقـــداً

(يوم الوقوف) أمام الواحـد الحـكم ؟(١٣)

وفي البيت الأخير من هذا الشاهد يلوح الأمل قوياً وباهراً فقد بدا له (نور الله) يوم عرفات أو يوم الوقـوف بعـرفات ، حيث يتخلص المسلم من كل الارتباطات التى تشده الى الأرض ليتسامى الى العالم الأعلى ، صافية نفسه طيبة روحه ، قوية عزيمته خالصة ارادته ، وهنا موطن الانفراج ، لكل الأزمات التى يعايشها المسلم المعاصر ، الذي أضناه الخمود والكسل والحيرة والتردد والنكوص . هنا مجال الحركة الخالصة لوجه الله (نور السموات والأرض) الذى ينبغى أن يتوجه اليه النـاس وحده . وهـذا التوجه هو حل لـكل المعضلات والمشكلات التى تواجههم وتستقطب اهتماماتهم وتستولى على أفئدتهم ، ان (باكثير) يحرّض على المواجهة من خلال هـذا الموقف الذى يتجرد فيه المسلم من الأطماع والشـهوات والأنانيـة ويتهيأ لتنفيذ أوامر الواحد الحكم بكل دقة واخلاص ، وهذا يعني

تجاوز الاحباطات التى يعايشها في واقعه الى مرحلة (الانجازات) الظافرة التى تمضى قُدماً نحو تحقيق الغـايات النبيـلة ، ولعـل تصويره لهذه الانطلاقة بعد أن يتحدث عن الجمـوع المحتشـدة في عرفات واللاجئة الى الله بالتوبة والنـدم ، والمشـاهدة لذكـريات طه سيد الأمم ، عليه الصلاة والسلام ، توضح لنا شوقه الى الظفر والانتصار في عالم الاسلام الصافي :

فاجمـــع متاعك واركب ظهر سـابحة
هـول ، تسـير بـلا رحـل ولا لجم
تجـرى فتبصـر بالأشـياء مدبـرة
تنفسـاً عن شـواظ منـه محتدم (١٤)

انظر الى (اجمع متاعك) و (اركب ظهر سابحة و (تسير بلا رحل ولا لجم) ، انها تضعنا في حالة تأهب للانطلاق والشـوق الى لقاء (الحرية) بمعناها الواسع ، والا فما معنى السابحة التى تسير بلا رحل ولا لجم (انها سابحة خفيفة الحركة) بالتعبير العسكري ، تحمل المسلم الى عالم آخر ، يحتشد له الشاعر منذ بدأ انشاده في هذه المطولة ، ويريد أن يقف أمامه وقفـة طويلة متأنيـة ومتأملة ومدققة فلم يعد هناك مفر من الوقوف أمام هـذا العـالم ليضيىء عالمنا (المحلولك الظلم) . وبالفعل فقد وقف الشاعر أمام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته الخالدة ، وأطال الوقوف .

— ٥ —

انها وقفة حضارية ، ووقفة مع الأمل المرتجى . ووقفة مع التاريخ الأزهر ولم تكن وقفة « باكثير » مجرد سرد تعليمي يقص حكايات وأخباراً عن سيد المرسلين — عليه الصلاة والسلام — ولم تكن كذلك مجرد حشو لمطولة استغرقت زهاء خمسين ومائتي بيت، ولكن القارىء حين يتأمل تركيب القصيدة ، يستشعر ومنذ المطلع — وكما أشرنا الى أن صاحبها له قضية وموقف مما يجرى في داخله ويجرى حوله . وقد كان المطلع تعبيراً عن احتدام واضطرام ، وتجيىء الوقفة لتقول لنا تفصيلا : هاهي شخصية محمد صلى الله عليه وسلم بكل أبعادها وملامحها ، ومن خلال شريعته الغراء تعطي الدنيا مدداً لا ينقطع من الأمل والسماحة والحركة الانسانية الظافرة .

تجرى القصيدة على ظهر (سابحة هول تسير بلا رحل ولا لجم) وتيمم نحو (طيبة) دار الهجرة ، ذات المنهل العذب ، والمسجد الميمون ، والروضة الغناء ، حيث خير الخلائق — صلى الله عليه وسلم — وهنا يتوجب على المسلم أن يتوقف ويسلم ، ويستجلى السيرة العطرة ليرى الكمال الحقيقي بلا أوهام ولا تخيلات :

هنـاك حيث يقـوم الشـوق في خجـل
لدى الجـلال ، جـلال المجـد والكرمِ
تبـدى ولوعك ؟ أم تذرى دمـوعك ؟
أم تهفـو ضلوعـك للآيات ، والعظمِ
وما تبث من الأشـواق في حـرم
يصـاب فيه بليـغ القـوم ، بالبكمِ (١٥)

وهنا سوف نرى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينشر الهدى في بلاغة فريدة ، ويلقى نصائحه فيطرب لها السامعون ، ويقضى بين الناس بالعدل ، ويزجي كتائبه المجاهدة ، ويستشير أصحابه في مشكلات المجتمع(٢٦) ، ويلقى وفود الناس ، ويبعث برسائله الى الحكام داعياً اياهم الى الدين الحنيف . انه « خير من يسعى على قدم » لأنه رجل الدنيا وواحدها ، وهو من نسل الخليل ومن فرع الذبيح ، اسماعيل ، ومن عدنان وكنانة ومضر وقريش وعمرو وعبد المطلب ، وعبد الله :

عقد من النسب العالي يفوق على
عقد من الدر والألماس منتظم
كأنما الخلق (روض) والرسول به
(خلاصة العطر) من أزهاره الفغم(١٧)

وها نحن نرى الدرة العصماء (آمنة) تقدمه للكون فيشرق بنوره الغامر ، ويهتز أهل السموات ، وتغني الحور ، وتُسبّح الملائكة ، وتنفتح أبواب الجنان ، ويتجلى الله بالرحمات ، يعدّ لأمر خطير هو : الرسالة .

وتتبلور الوقفة الحضارية أمام شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لترصد من خلال وقائع حياته ، حركة التاريخ الاسلامي والعقل الاسلامي ، والخلق الاسلامي . انها ركائز الأمل المرتجى لاستعادة المجد الضائع وبناء الحضارة المفقودة . فليست حياة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شريطاً اخبارياً ينقله الشاعر لنتعرف على وقائع هذه الحياة . وانما المسألة تتعدى ذلك الى التعامل مع الواقع المعاصر من خلال الوقائع التأريخية ، فنرى أكثر من قضية معاصرة تفرض نفسها من خلال تناول التأريخ . ويمكن للمرء أن يرصد قضايا ، مثل : قضية تعليم المرأة ، قضية تعدد زوجات الرسول

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قضية المسئولية بين الراعي والرعية ، قضية الاستبداد الديني ، قضية الاسلام والعقل والعلم ، قضية الاعجاز القرآني ، قضية تحريف الكتب المقدسة ، قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، أو حقوق المرأة(١٨) .

ان « باكثير » يتناول هذه القضايا في سياق التناول التأريخي ، ليدلل على سبق الاسلام الى الوقوف بجانب الانسان ، سواء كان رجلا أم امرأة ، واتباعه لكل ما يتوافق مع فطرته وطبيعته . بيد أن الأهمّ في ذلك كله هو جلاء شخصية نبي الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقديمه من خلال أطوار حياته المختلفة كصورة تجمع الى الكمال الجلال ، وتجمع الى صفاته الانسانية الفاضلة كل معالم الخلق العظيم ونلاحظ هنا أن « باكثير » قد ركز على الصفات المعنوية دون الصفات الجسدية ، وهذا ادراك متقدم لما ينبغي أن تكون عليه الوقفة الحضارية التى تحمل هموم الحاضر ، أمام شخصية الرسول الأعظم ـ صلى الله عليه وسلم :

ولم يكن ملكاً ، لكنه بشر
فاق الملائك بالأخلاق والعظم
العصمة الحق من أدنى مناقبه
اذ كان في خلقه العلوى في عصمِ(١٩)

ان أهم ما يميز هذه الوقفة الحضارية ، هو قدرة الشاعر على أدائها في صياغة مبسطة تجنح أحياناً الى النثرية والرضوخ لمنطق الجدل والمحاجة ، كما سيأتي ، ولكنه يعوّض القارىء ، بل يثرى النص ، بأبيات تمتلىء عفوية وشاعرية ، وتحسب للشعر لا عليه في قوله :

لا يلتقى الذل والاسلام في خلد
أو يمكن الجمع بين الماء والضرم(٢٠)

أو في قوله :

العـــلم آياتــــه ، والعقــــل حجتـــــه
والعــــدل شرعتــــه في كـــــل محتكمِ

جاءت بلاغتــــــه لا كالبــلــــلاغة في
نظامها الجـــزل أو أسلوبهـــا القصمِ

كالرعــــــد يقصف أو كالريح تعصف أو
كالبحـــر يرجف في أمواجـــه البهم(٢١)

أو في قوله :

وافى على فـــــترة والأرض واجفـــة
ممَّا بها من صنوف الـــــكفر والجرمِ

تضجّ بالظـــلم ، لا شرع يقـــوم بهـــا
من الســـماء ولا من واضـــع فقمِ(٢٢)

أو في قوله :

ســـــاد الفســـاد وعم الشر وانفجـــرت
براكـــــن البغي والشـــحناء والوغمِ

ومــــــزقت كتب الرحمـــــن وامتهنت
كـــــرامة العـــــدل والآداب والنظمِ

وأصـــبح النـاس في فـــوضى لا يسودهم
الا الزعــــــانف ، أهـــل البغي والغشمِ

وعذب النـــاس باسم الدين واســـتلبت
أموالهـــم للقســـوس الفســـق الغشمِ

فكان من حكمــــة المولى ، ابتعـــاث فتى
يهدى شـــعوب الورى للمنهـــج اللقمِ

أو في قوله :

حـــــتى اذا انتهـــكت لله حرمتــــه
رأيت غضـــــبة ليث هيـــج في الأجمِ

سرّ الشجاعـــة ، فصـل من شـــجاعته

اذا الجمـــوع تـــلاقت والوطيس حمي

يبـــدو اذا وهت الأركـــان من جـــزع

أقـــوى وأثبت أركاناً مـــــن الهرمِ

وربما انفضّ عنـــه جيشـــه ، فـــيرى

كأنه ـ وحـــيده ـ جيش من البهمِ (٢٤)

ان التركيز على عنصر المقـارنة الذى يطالعنـا في القصـيدة ، يتعادل مع الموقف الشعري لدى « باكثير » ، واذا كنـا قد ألمحنـا فيما مضى الى طفو القضايا المعاصرة من خلال التناول التـأريخي فاننا نضيف الى ذلك ، تناول الشاعر للحياة قبل الاسلام بملامحها المتعـددة لدى العـرب أو على مسـتوى الدولتين العظميين في ذلك الحـين ، وهو ما نراه أيضاً ، متعادلا مع الملامح المعـاصرة لحيـاة الناس ، حيث يعيشون ذات الظروف أو الملامح تقريباً ، ومن هنا ندرك ثقل الهم الحضاري الذى يثقل صدر وعقل ووجدان شاعرنا « علي أحمد باكثير » منذ نصف قرن . وندرك أيضاً سر الوقفـة الحضارية التى طالت أمام شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى ركزت على صفاته المعنوية . انه حنين بل احتشـاد للبعث ، أو للانبعاث الحضاري اسلامياً وللخروج من المحنـة التى يعيشـها المسلمون في أيامهم الراهنة . ويكون الشـاعر بوقفته الحضـارية واحساسه الذاتي ، قد تهيأ ليعالج ما عليه المسلمون الآن من تفرق وتشرذم وشعوذة وكذب وتخلف ولهو وجهل وغفلة ولؤم .

لقـــد غـــدت أمة الاســـــلام ذاهـــلة
منهـــا القلوب فأضحت (قصة الأمم ِ)(٢٥)

تلك هي القضية أضحت أمة الاسلام (قصة الأمم) يتنـــاوبون الجلوس أمامها ، ويتشاركون في التهامها بشراهة مفجعة ، بعد أن كانت قلوب هذه الأمم المعادية ترتجف خـوفاً وهلعاً ، كلمـــا ذكر أمامها اسم دولة الاسلام .

ومن أجل هذه القضية المأساة ، كانت وقفة الشاعر أمام شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يسـتجلى ملامحهـا ، ويوضـح مناقبها . ليدرك الخلفُ الطالح سيرةَ السلف الصــالح بقيـادة نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام . وما كان لهذا الخلف ان تتجمع عليه الأمم من كل جنس ولون ، لو انه تنبه لتعاليم هذه القيادة واستفاد بتحذيراتها التى وردت في الأحاديث الشريفة تنبيء بهذه النهـاية الأليمة لكل من يولي وجهه ، عكس وجهة الاسلام ، ولكل من يتزيا بالاسلام عباءة ، دون أن يضيء الاسلام في داخله احساساً وانفعالا وايماناً .. وقد كان للنبوءة أن تتحقق ، حيث :

لم يبـق فيهـا من الاســلام والأسـفا
الا اســمه وبهـــا معنـــاه لم يسم ِ
قامت حجـــاباً كثيفـــاً دون دعـوته
بمـــا اليه ســقوط المسلمــين نمى
حاكتـك في صـور الأعمــال تتبعهـــا
وما اقتـــدت بك في عـــزم ، ولا همم ِ

ولا كمـــــال ولا صــــدق ، ولا خــلق
ولا اجتهـــــاد ولا عـــــز ، ولا شمم
ولا تقــــوم الى القــــرآن ، تقـــرؤه
الا أمــــالي بالألحـــــــان والرنم
كأنمـــا أنــزلت آي الــكتاب لــكي
تتــلى عــلى شرب راح أو عــلى رجم
تبــدلوا منـــه كتبـاً لا حيـــاة بهـــا
كأنمـــا عــكفوا منهـــا عــلى صنم
تحكي نواويس مــوتى جـبرت زمنـــاً
فـــلا ترى بـين أجســـام بغـير دم (٢٦)

وهنا نشعر بلذعة الحرقة واللوعة والأسى والحسرة ، ونطالع في الوقت ذاته هجوماً ضارياً وعنيفاً عـلى هـذا الواقـع المهترىء والمتعفن ، والذى تحول الى شكل بلا مضمون وصورة بلا محتوى ، حتى انتهت معالم الحياة الفكرية والعقلية الى مومياوات محنّطة ، وتحول القرآن الكريم الى مجـرد آيات تتلى في المناسـبات منغمـة ومرنمة ، دون أن يتدبرها أبناء الأمة ، ويعملوا بها نصاً وروحاً . بل وصل الأمر الى استبدال كتب جامدة وميتـة بآياته وسـوره ، وهذه كارثة ما بعدها كارثة ، فهنا يكون الموت حضارياً وتاريخياً ومستقبلياً ، وتتراجع ملكات الانجاز والابداع والابتـكار ، ولا فرق في هذه الحال بين جاهلية قديمة ، وجاهلية جديدة فالكل عاكف على صنم أو أصنام .

ان المأساة التى يراها الشاعر على مسـتوى الوقفـة الحضـارية تتلخص في أمرين . أولهما : الجمود والاستسلام للنصوص الميتة ، وخنق العبقريات ، وقتل الملكات والمواهب ، ثانيهما : السقوط في محضن الغرب ، والاستسلام للحضارة الوثنية المعاصرة بتصوراتها

التدميرية واللاانسانية . وسبب هذه المأساة في كل الأحوال هو « الضعف » ولا شيء غيره :

تبـــدلوا منه كتبـاً لا حيـاة بهـا
كأنمـا عكفـوا منهـا علـى صنمِ
تحكي نواويس مـوتى حـبرت زمنـاً
فـلا ترى بـين أجسـام بغـير دمِ
عـدوا المشـائخ أرباباً بعـد هم
أقـوالهم كنصـوص الواحـد الحكمِ
وآخـرون أصـاروا الغـرب قبلتهم
فهـم بهـا غـير طـواف ومستلمِ
رأوا أوربا فراحـوا يكفـرون عـلى
جهـل بدينهـم المـوروث والشيمِ
وأنكروا مجـد آباء لهـم شـهدت
لهـا فحـول رجال الغـرب ، بالقدمِ
وما لـذلك غـير الضـعف من سبب
فالضعف أصل جميـع البؤس والنقمِ (٢٧)

ويصـبح الصراع بين الغرب (الطـامع) والشرق (الضحية) امتداداً لملامح الهم الحضـاري ، الذى يؤرق « علي أحمد باكثير » فأمته معرضة للاندحار الكامل لأن الغرب يقظ وصاح ، ويعمـل بجد واستمرار لالتهام فريسته (الاسلامية) أما الفريسة .. أما العرب ، فهم في غفلة ولا مبالاة ولا اعتبار بما جرى من قبل ، بل يركزون همهم الأول في التـلاحي والتباغض والتناحـر والتعادى والعدو (الطامع) يرقب ما يجرى بانتباه ووعي :

يارب رحمـاك ان الغـرب منتبـه
والشرق مشـتغل بالنـوم والسأمِ

والعـــرب في غفـــلة عمـــا يهـــددها
لم تعتـــبر بليـــالي بؤســـها الدهمِ
يا ويحهـــا ، تتعـــادى ، والعـــدو على
أبوابهـــا يرقب الأحـــداث عن كثمِ
والوقت أضـيق والأحـداث في عجـل
تبنى وتهـدم والآفـــات كالديمِ (٢٨)

ويتواصل الهم الداخلي في نفس الشاعر مع همه الخارجي حين يتهيأ للتوسل والشفاعة والرجاء وطلب النجدة الالهية ، فيرى نفسه سعيداً ، بل هو السعيد اذا سعدت أمته . وكأن سعادة الأمة تعنيـه وحده ، ولا تعني أحداً سواه . وأيضاً ، فان انحطاطها أو سقوطها مصدر شقائه وعذابه :

أنا الســـعيد اذا ما أمتي ســـعدت
حـــالا ، وفي ذلهـــا ذلي ومهتضمي
اذا أملـــت ففي آمالهـــا أمـــلي
وان ألمت ففـــي آلامهـــا ألمي (٢٩)

وكعادة شعراء المطولات الاسلامية حين يختتمون قصائدهم ، فانهم يوقفون الخاتمة على « الابتهال » والوقوف في « ضراعة » والنداء ب « توسل » واستنفار جميع الأساليب والأدوات الملائمة لهذه الغاية ، لعل قبولا من الله سبحانه يكون من نصيب هذه التوسلات والضراعات والابتهالات .

ويكرس « باكثير » في خاتمته كل مكنوناته الروحية والنفسية والعقلية لصالح أمته ومن أجل الاسلام أو بمعنى أدق من أجل البعث الاسلامي والحضاري لأمة طحنتها الأحداث ، وتقاطرت عليها الأمم ، وتحلقت حولها وراحت تنهشها . وينادى « باكثير » ربه طالباً منه ، ومتشفعاً بخير الأنام ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجير أمته من الصمم ، وأن يبث فيها روحاً وثّابة تنهضها وتنشر علمها وتطهر الكون من الرجس والفسوق والظلم والمحن ، لأن هذا دواء الكون مما فيه :

يارب ياصاحب العرش العظيم ومن
تحيي الارادة منه دارس الرممِ
بما بعثت به خير الأنام ، أجر
يارب ، أمته من صمة الصممِ
ولقها منك روحاً لا يغادرها
الا وقد نهضت منشورة العلمِ
تطهر الكون مما فيه من رجس
ومن فسوق ومن ظلم ومن أزمِ
فلا دواء له مما يكابده
الا هداية الرسل .. كلهمِ (٣٠)

ثم يثنى بالدعاء لنفسه ، ليملأ الله فـؤاده نوراً ويجعل عزائمه ممزوجة بدمه ، ويقدر له الخير ويرزقه الشفاعة يوم الهول ، ويبل ريقه في هذا اليوم من حوضه ، ويغفر ذنوبه وذنوب أبيه ووالدته وزوجته ، وذوى قرباه ورحمه .

وبعد الدعاء لنفسه وآله ، يأخذ في الصلاة والتسليم على خـير نبي ، وصاحبه أبي بكر ، ثم يطلب الرضاء لعمر الفاروق ، القوي العادل ، والمقوض لدولتي الفرس والروم ، وعثمان ذى النورين، أخشع من قرأ القـــرآن ، ومجهــز جيش العسرة ، وعلي أبى الريحانتين ، وبطل الأبطال ، وسيف النبي ، وامام الشجعان ، ثم السلام مرة أخرى على (طه) وعترته وآله ، والبتـول الـكبرى (فاطمة) وولديها الحسن والحسين ، والأزواج العصم :

واختم بمســـك تحيـــات يفـــوح على
(محمـــد) خـــيـر مبـــدوء ومختتمِ
ما أومض البرق في الظلمـــاء من أضـــم
وما عطـا الريم بين البـــان والعلمِ (٣١)

ولا بد أن يكون القارىء قد أحس بشيء ما ، يشده شداً ، بل يلوى عنقه بقوة ، تجاه ما أثاره نشيد « باكثير » الطويل منذ هتف في المطلع :

يا نجمـــة الأمــــل المغشي بالألـــم
كـــوني دليـــلي في محـــلولك الظلم

حتى وصوله الى « مسك الختام » و « ايماض البرق » في الظلماء من أضم ، وعطاء « الريم بين البان والعلم » مُصراً على أن يذكرنا بسابقيه في هذا الميدان وهما «البوصيري» و «شوقي» رحمهما الله .

ان نشيد « باكثير » الطويل قد حمل عاطفة جياشة واحساساً متوقداً ، وشعوراً مرهفاً ، أشعله أكثر وأكثر وجوده بالقرب من الأماكن المقدسة في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وها نحن نرى ملامح ذلك في أبياته تنبيء عن نفس مشوقة الى بعث جـديد ، وانتصار جديد ومجد جديد .

ولا يمكن للقارىء الا أن يستشـعر مدى التمـايز بين البردة ونهجها من ناحية ، وبين قصيدة « باكثير » من ناحية أخرى . وكنا قد أوضحنا من قبل استقلاليـة مطلع « باكثير » وتفرده بالتعـامل المباشر مع الهم الذى يحمله والأمل الذى يحلم به . ولكن نظـرة شاملة الى القصيدة توضح ذلك الاتساق الشعورى الذى يسيطر على أبيات القصيدة منذ بدايتهـا حتى نهايتهـا . . واذا كانت الأجزاء تعالج قضايا فرعيـة الا أنهـا تصب في النهـاية داخـل القضـية

الأساسية ، وهي قضية الانبعاث الحضاري الاسلامي الذى يحلم به كل مسلم مع «باكثير» . اننا نجد توظيفاً متكاملا بين المطلع الحزين والثائر ، وبين رصد الواقع المحزن للأمة الاسلامية ، وبين الوقفة الحضارية ، من خلال الماضي والواقع والمستقبل ، لشخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين الانتقاد الشديد للانفصام والجمود والتحلل ، وبين الرجاء والتوسل والشفاعة من أجل الانبعاث وعودة المجد والعزة .

ان المرء يشعر بأنه ازاء قضية أساسية تشغل بال وعقل وفكر ووجدان الشاعر ، ولذلك جعلته يركز كل همومه على معالجتها وايضاحها ، وان أنساه ذلك أحياناً أنه في عالم الشعر ، وليس في عالم الجدل والفلسفة والتأريخ . لقد اضطرته القضية الى التحول في أحايين معينة الى التضحية بالقيمة « الشعرية » في سبيل القيمة « الموضوعية » ، أو بمعنى آخر بالصدق « الفني » لحساب الصدق « العملي » ـ ان صح التعبير ـ . ومن ثم ، فقد رأيناه يطالعنا بأبيات قد خلعت ثياب الشعر كلها اللهم الا ثوب العروض والقافية فقط ، فقد ظل يقعقع في آذاننا ، بصورة مزعجة وعقيمة ، ولنقرأ:

هذا ، على ان (طه) قد أتيح له
منهن شيء كثير ليس في الأمم
مثل العروج ، ونبع الماء من يده
وهزم جيش ، برمل من يديه رمي
والجذع حن ، والاخبار عن غيب
بموتهم ثم والتكفير للوثم
وغير ذلك مما جاء عن عرض
لا للتحدى ، فشمس الحق لم تغم
صحت أسانيدها لا كالتي رويت
عن سائر الرسل لم تثبت لمتهم

ولا سـبيل الى اثباتهـا بسـلوى
هـذا الكتاب الكريم الشاهد الحكمِ (٣٢)

ولنا أن نلاحظ ، استسلام هذه الأبيات الى جانب القص أو الحكي التأريخي الرتيب ، وهو ما لا يختلف كثيراً عن القراءة في كتاب تاريخي نثري يروى هذه المعجزات وغيرها . فضـلا عن جفافهـا وشحوبها وتقريريتها . ونلاحظ أيضاً استخدام اسم الاشارة (هذا) .. لمتابعة القص التأريخي واضطرار الشاعر الى الحشو لاستكمال الأبيات والوصول بمشقة الى القافية .

ولكن « علي أحمد باكثير » يقدم في المقابل ، حـين ينفرد بهمه تاركا القضايا التأريخية والاجتماعية ، شـعراً فياضـاً وعفوياً وأخضر ، كما أوضحنا فيما سلف ، وكما طالعنا في المطلع على وجه الخصوص . ويمكننا هنا أن نعيد بعض النماذج للتأكيد ، يقول عن نجمة الأمل :

أنت الحيـاة ، ولولا أنت ما اتسـعت
مضـايق العيش بين الهـم والسقمِ
تلوَحـين لمـن ضـاقت مذاهبـه
وأوشـك العيش يلقيـه الى الرجمِ
ان هـذه نوبة في الحـال زائلـة
ودون بضـع خطى ما رمتـه ، فقمِ
والوهم أمتن أسـباب الحيـاة لـه
آثـاره في سـرور النـاس والألمِ
يا ويـح قلب بجنبي لا هـدوء لـه
يجيش بالهـم كالبـركان بالحممِ
يئـن من ثقـل الآمال ، تبهظـه
ان الهمـوم رسـالات من الهممِ (٣٣)

وعن أشجانه تجاه « الأحقاف » وما فيها من آلام ، يقول :

وارجع الطرف في « الأحقاف » غارقـــة
في الجهـــل فوضى بلا عــدل ولا نظمِ
تفننت في مـــلاذ العيش تاركـــة
ما تقتضـيه ، فـلم تفطـر ولم تصمِ
والخلف محتكم فيهـــا ، يمزقهـــا
حتى يغـــادرها لحمـاً عـلى وضمِ
كيف القـرار على حال ، يـذوب لهـا
قلب الـكريم ، ويجـرى دمعـه بدمِ
ياليت شـعرى ، أللعليـاء من سـبب
ألفيـه يقـذفني منهـا الى القممِ
شـوقي اليهـا ، وعجـزى عن تسلقهـا
يعذباني ، عـذاب الويـل ، والضرمِ(٣٤)

وعن « الروضة » الشريفة ، ومشاعره تجاهها يقول :

هناك حيث يقـوم الشوق في خجـل
لدى الجـلال ، جـلال المجـد والكرمِ
تبـدى ولوعـك أم تذرى دموعـك أم
تهفـو ضـلوعك للآيات والعظمِ
وما تبث مـن الأشـواق في حـرم
يصاب فيـه بليـغ القـول بالبكمِ(٣٥)

يتيح بحر « البسيط » بتفعيلاته ، وما تجيزه من خبن وقطع في تفعيلاته وضربه وما توجبه من خبن في عروضه ، فرصة للحـركة الطليقة ، يندفع بها الشاعر الى التعبير عن مشاعره ، وانفعالاته ، خاصة أمام موضوعات ثرة وغنية وزاخرة ، كهذا الموضوع الذى يعالجه « باكثير » ويحشد له وفيه كل امكاناته التعبيرية والذهنية والوجدانية . ولعل هذا هو ما أتاح له أن يجنح أحياناً الى التعامل مع القضايا التى تلح عليه بصورة مباشرة وصارخة ، دخلت به الى مجال الجدل التأريخي ، حيث يعرض الاتهامات ويرد عليها بالأدلة الدامغة والقاطعة التى تؤيد وجهـة نظره ، وموقفـه الاسـلامي الحضاري ، متغاضياً عن الموقف الشعرى .

ولأن هذا البحر كان منطقة العبور الشعري لأصحاب القصائد الاسلامية الطوال ، فقد فكّ شراعه ، وأبحر مع المبحرين والعابرين على صفحة « البسيط » حتى وصل الى مرفأ الوقفة الحضارية ، مـع الاسلام .

واذا كان معظم العابرين قـد قلدوا السفينة الأولى التى بدأت بالابحـار ، أعني « بردة البوصيري » ، فان « باكثير » قـد حاول جاهداً أن يمسك (دفته) بنفســه ، وأن يتعـامل مع « الريح » وفقاً لتصوراته وتطلعاته واستشرافه للمرفأ البعيد . ان معظـم الذين تابعوا « البردة » نهجـاً ورسـماً ، وتشـطيراً وتخميسـا ، وقلبوها على كل الوجوه الممكنـة للأداء الشـعري ، كانوا محكومين بالصورة واللفظة والتضمين والاقتباس والبيان والبديع ، فضـلا

عن البناء العام للقصيدة ، كما شاهدوا في « البردة » ولدى أمهـا الأولى (تائية ابن الفارض) .

ولم يسلم « باكثير » من ذلك(٣٦) رغم محاولتـــه الاستقلال الذاتي ، بل انه كما رأينا من قبل ، يأبى في نهاية القصيدة الا أن يذكرنا « بالبوصيري » و « شوقي » معاً :

واختم بمسك تحيـــات يفوح عـــلى
(محمـــد) خـــير مبـــدوء ومختتمِ
ما أومض البرق في الظلمـــاء من اضم ،
وما عطـــا الريم بين البـــان والعلمِ

ويمكننا أيضاً أن نقول ، انه تأثر في أبيات كثيرة بمن سبقوه ، يقول ، مثلا :

كيف القـــرار عـــلى حال يذوب لهـــا
قـــلب الـــكريم ويجـرى دمعـــه بدمِ

وهو مأخوذ من أول بيت في « البردة » :

أمن تذكـــر جـــيران بـــذى ســـلم
مزجت دمعـــاً جـــرى من مقـــلة بدمِ

بيد أننا نستشعر طعماً خاصاً وطريفـــا ، لايقاعاته وصوره ، ولنقرأ مثلا بيته القائل :

تبـــدى ولوعـــك أم تـــذرى دموعك أم
تهفـــو ضـــلوعك للآيـــات والعظمِ

انه ايقاع راقص يعتمد عـــلى الجنـــاس الناقص (ولوعك ــ دموعك ــ ضلوعك) ، والاستفهام التقريري ، واستخدام الفعـــل الرباعي (تبدى ــ تذرى ــ تهفو) وهو يشترك في سكون العين ،

ومثله البيت الذى يقول :

كالرعـــد يقصف أو كالريح تعصف أو
كالبحــر يرجــف في أمواجـــه البهمِ

أو بيته الذى يقول :

العـلم آياتـــه والعقـــل حجتـــه
والعـــدل شرعتـــه في كـــل محتكمِ

ويلاحظ المرء كثرة التشبيهات والاستعارات في القصيدة واستخدام أدوات التشبيه خاصة « الكاف » وتقوم التشبيهات على أساس من استخدام الصور المألوفة ، ومعظمها يعتمد على ما يمكن أن يندرج تحت « الضوء والظلمة » فتجده يصوّر الاشراق والنور وظهر النهار ، ومحلولك الظلم ، والدجى المتتالية ، والشرر .. الخ . ولكنه يتجاوز عالم النور والظلمة الى مجالات أخرى ، فنرى (الأحقاف غارقة) ، و (العرب قصعة الأمم) ، و (يعرب رواية بؤس يعرضها الدهر) ـ وهذه صورة مسرحية ان صح الوصف ـ و (الشوق يقوم في خجل) ، و (الاسلام يوسعه الأعداء فتكاً) ، و (التفرق كتقطيع اللحم على الوضم) ، و (البعث الحضاري كالنشور يوم القيامة) ، و (الأرض واجفة) ، و (القلب بركان) ، و (المحبوبة حياة) ، و (الطريق كحد السيف) ، و (العلياء قمة شاهقة يصعب تسلقها) ، و (الشباب براق المجد .. الخ)(٣٧) .

كما نعثر على أنواع من الطباق والمقابلة والجناس ، ولكنها قليلة على كل حال ، كما نرى في « نجمة الأمل المغشي بالألم » و « سرور الناس والألم» و «الهموم رسالات من الهمم» و «شوقي .. وعجزى» و « الغرب منتبه والشرق مشتغل بالنوم » .

يبقى أن نقول عن قصيدة « باكثير » أنها توقفت أكثر الوقت عند « طيبة » ذات المنهل الشبم ، ولم تتوقف عند « مكة » الا « يوم الوقوف » ، ثم صاح الشاعر :

فاجمـــع متـــاعك واركب ظهـر سابحة
هـــول تســـير بـــلا رحـــل ولا لجمِ
تجـرى فتبصـــر بالأشـــياء مدبـــرة
تنفســـاً عن شـــواظ منـــه محتدمِ

وفي « طيبة » كان « باكثير » مشدوداً الى شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ما فيها من عطاء وغناء ، وعندها أفرغ كل ما لديه من أشجان وأشواق ، ومعلناً عن أمل يراوده ويراود كل المسلمين وهو « البعث » بكل ما يعنيه من وحدة وتحرر وتفوق في كافة مجالات الحياة ، وقد استطاع بالفعل أن يعبر عن هذا الأمل أحسن تعبير :

لا يلتقى الـــذل والاســـلام في خـــلد
أو يمكن الجمـــع بين المـــاء والضرمِ

■□■

■ الهـــوامش :

(١) كتب « باكثير » المسرحية الشعرية ، ومن أبرز ما كتبه مسرحيـة « همـام أو في عاصمة الأحقاف » سنة ١٩٣٢م ، « اخناتون ونفرتيتي » سنة ١٩٣٨م ، وقـد صاغها على طريقة الشعر الحر ، محاذياً في ذلك ترجمته لاحدى مسرحيات شكسبير حيث ترجمها شعراً مرسلا .

(٢) يبدو تأثر « باكثير » (بنهج البردة) في الجانب البنائي لقصيدته واضحاً ، حيث تخلص الى حد بعيد من السرد الوصفي والقص التعليمي ، ونلمح روح « شوقي » تطل في بعض الأحيان من خلال النص .

(٣) الأبيات (١ـ٥) من القصيدة .

(٤) مطلع البردة للبوصيري يقول :

أمـن تذكــر جـيران بذى ســلم ... مزجت دمعــا جـرى من مقـلة بدم
أم هبت الريـح من تلقــاء كاظمـــة ، ... وأومض البـرق في الظلمــاء من أضم

أما مطلع قصيدة « البارودي » والمسماة « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » فيقول :

يا رائد البـــرق يمم دارة العــــلم ... واحـدِ الغمــام الى حيّ بذى ســلم
وان مررت عــلى الروحاء فامر لهـــا ... أخـلاف ســارية هتــانة الــديم

ومطلع (نهج البردة) « لشوقي » ، هكذا :

ريم على القــاع بين البــان والعــلم ... أحلّ ســفك دمي في الأشــهر الحرم
رمى القضــاء بعيني جــؤذر أســدا ... يا ساكن القــاع أدرك ساكن الأجـم

(٥) الأبيات (٧ـ٩) .

(٦) البيتان (١٠ـ١١) .

(٧) البيتان (١٢ـ١٣) .

(٨) نشأ « باكثير » في حضرموت ، وفيها (الأحقاف) حيث عاش فترة طفولته وصباه وشبابه ، وكانت محمية من محميات بريطانيا ضمن (الجنوب العربي سـابقاً) وقد هجرها الى مصر ، وقضى فيها بقية عمره .

(٩) الأبيات (١٤ـ١٦) .

(١٠) الأبيات (١٨ـ٢٠) .

(١١) الأبيات (٢١ـ٢٣) .

(١٢) الأبيات (٢٤ـ٢٨) .

(١٣) الأبيات (٢٩ـ٣٥) .

(١٤) البيتان (٣٨ ، ٣٩) .

(١٥) الأبيات (٤٧_٤٩) .

(١٦) واضح أن تركيزه على هذه القضايا كان رد فعل لما يعانيه الناس من استبداد وتسلط وعسف .

(١٧) البيتان (٦١ ، ٦٢) .

(١٨) في الأبيات من ٧٣ الى ٢١١ ، معالجة تفصيلية لهذه القضايا .

(١٩) البيتان (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

(٢٠) البيت (١٦٠) .

(٢١) الأبيات (١٢٥_١٢٧) .

(٢٢) البيتان (٩٩ ، ١٠٠) .

(٢٣) الأبيات (١٠٤_١٠٨) .

(٢٤) الأبيات (٨٣_٨٦) .

(٢٥) البيت (٢١٣) .

(٢٦) الأبيات (٢١٤_٢٢١) .

(٢٧) الأبيات (٢٢٠_٢٢٦) ، ويتضح من هذه الأبيات تأثر الشاعر بالدعوات التجديدية في الدين ، كما جاء على يد جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، ثم محمد بن عبد الوهاب . وقد أشار الى ذلك بعض الباحثين عند تناول بعض مسرحياته الشعرية (راجع مجلة « الشعر » العدد ١٧ _ ص١٢٢) .

(٢٨) الأبيات (٢٢٧_٢٣٠) .

(٢٩) البيتان (٢٣١ ، ٢٣٢) .

(٣٠) الأبيات (٢٣٣_٢٣٧) .

(٣١) البيتان (٢٥٢_٢٥٣) .

(٣٢) الأبيات (١٤٠_١٥٠) .

(٣٣) الأبيات (٨ _ ١٣) .

(٣٤) الأبيات (١٨_٢٢) .

(٣٥) الأبيات (٤٧_٤٩) .

(٣٦) نجد مثلا في البيت (٤٠) تضمينا لقوله تعالى : (ويخلق ما تعلمون) وفي البيت (٢١٣) أشار الى حديث الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ بتكالب الأمم على المسلمين حين يخالفون منهج الاسلام ويصبحون (قصعة الأمم) ، وفي البيت (٢٧) اشارة للآية الكريمة (ترمي بشرر كالقصر) .

وهي طريقة وضحت لدى «شوقي» في (نهج البردة) حين قال :

ونودي « اقرأ » تعـــالى الله قائلهـــا   لم تتصــل قبــل من قيلت له بفم

كما يتضح التشابه بين « شوقي » و « باكثير » في الأبيات الأخيرة في كل من القصيدتين .

(٣٧) نعثر في بعض الأبيات على صور تتسم بالجدّة والطرافة والابتكار والعـذوبة . فمثـلا نجد ، « والرسول .. خلاصة العطر » و « يبدو اذا وهت الأركان من جزع ، أقوى وأثبت أركانا من الهرم » و « طه في تبلبله من هولها » و « بلّ من حوضه ريقي » .

■□■

مطبوعات نادي جازان الأدبي

١ ــ الأدب الشعبي	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
٢ ــ الينابيع (ديوان شعر)	للأستاذ محمد علي السنوسي
٣ ــ قصص من الجنوب	لمجموعة من الشباب
٤ ــ أبو سفيان بن حرب	للأستاذ زاهر الحارثي
٥ ــ الأرض والحب	للأستاذ أحمد يحيى بهكلي
٦ ــ مع الشعراء	للأستاذ محمد علي السنوسي
٧ ــ مسابقة الشعر	لمجموعة من شعراء الشباب بجازان
٨ ــ ليلة في الظلام (طبعة ثانية)	للأستاذ محمد زارع عقيل
٩ ــ المعجم الجغرافي لمنطقة جازان	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
١٠ ــ نفحات الجنوب	للأستاذ محمد علي السنوسي
١١ ــ طيفان	للأستاذ أحمد يحيى بهكلي
١٢ ــ الصندوق المدفون (قصة)	للأستاذ طاهر عوض سلام
١٣ ــ بين جيلين)قصة)	للأستاذ محمد زارع عقيل
١٤ ــ الآثار التاريخية بجازان	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
١٥ ــ الملك المظفر أبو الفداء	للأستاذ ياسر فتوى
١٦ ــ أمسية فلسطين الشعرية	أسرة النادى
١٧ ــ محاضرات في الأدب والتاريخ	للأستاذ محمد أحمد العقيلي
١٨ ــ مطولة باكثير الاسلامية	للأستاذ حلمي محمد القاعود